عصر المأمون

« للدكتور احمد فريد رفاعي المجلد الاول ٤٧٢ المجلد الثاني ٤٣٩ المجلد الثالث »

« ٣١٧ طبعت في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م »

هذا كتاب مفيد جوده مؤلفه فنال به لقب « دكتور » من الجامعة المصرية بدرجة ممتازة جداً وقد تفضل المؤلف فأطلعني عليه وهاك ما كتبته من الملاحظات بحرفه :

أدخلت السرور على نفسي لتفضلك باطلاعي على كتابك «عصر المأمون» وهو في المخطوطة وذلك لجلالة الموضوع في ذاته ، ولان المأمون نسيج وحده في الخلفاء ، وخير خليفة جمع العلم والعمل ، يحبه ويحب عصره كل من كان له حظ من تاريخ العرب ، وكانت سيرته اجمل سيرة في الملوك الذين عقمت الايام ان تلد شبيهاً لهم ، وحق لكل جيل ان يتغنى بمناقبه ، ويتغزل بمحامده ، وهي القدوة وهي العبرة ، ما دام يدرس تاريخ الخوالف .

أعجبت بتنسيق كتابك وفيه من الامتاع والابداع شيء كثير ، وراقني سلاسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبارتك ، ودقة تصرفك ، وحسن مأتاك في البحث ، وصحة حكمك على معظم الحوادث ولقد قربت بهذه العناية منال الاستفادة على الطالبين ، ونفذت الى ظلمات التاريخ فخرجت منها بشهاب قبس ، أنار ناحية كبرى من نواحي عظمتنا الغابرة ، قرأت الوفاً من الصفحات فكتبتها في بضع مئات ، مشفوعة بجميل استقرائك وصحيح استنتاجك ، وصورت للناس مدنية عصرنا الذهبي حتى كادوا يلمسونه ويحسونه ، فكان حقاً على المنصفين ان يمدحوا غناءك ، ويحمدوا دؤوبك وعناءك .

لا جرم ان هذه الصفحة الكبيرة من تاريخ العرب خليقة بالدرس والتأمل كل حين ، لانها ثمرة نضج العقل الاسلامي الذي ينادي على وجه الدهر ، بلسان الحال والمقال ، ان الامة التي استطاعت منذ اكثر من الف عام ان تعمل للحضارة هذه الاعمال الجسام ، مستعدة في كل زمن ان تأتي بمثلها او أحسن منها .

وما رأيت شهد الله في كتابك بجملته وتفصيله ، ما يصح ان تؤاخذ عليه ، الا تصويرك بعض أدوار الامويين في صورة باهتة استندت في اخذ بعض خطوطها وأشكالها على مؤلفين متعصبين ، كاليعقوبي وابن الطقطقي والمسعودي والاصفهاني ممن لم تكد تسلم نفوسهم من الشعوبية وكان التشيع غالباً عليهم . فكتبوا ما كتبوا مدفوعين بعوامل سياسية ، وجوزوا بث دعوتهم بانواع من التحيل والتلفيق .

وان من يسبون الشيخين وابنتيهما الطاهرتين سباً قبيحاً ، و يتعبدون الخالق بذلك ، و ينعتون الخليفتين الاولين « بصنمي قريش » وهما ما هما من المكانة المجمع عليها في الاسلام ، يغضون ولا يبالون من بني أمية . وهناك الدماء المطلولة ، والطوائل المتأصلة والملك المستأثر به ، والاهواء التي جعلوا من اركانها الانحاء على كل من لم يشايعهم .

وان من تجنوا بنشر نحلتهم ، والدافع اليها الدنيا لا الدين ، جنوا واي جناية على الدين والدنيا . ومن أشنع أعمال المنحرفين عن بني أمية وضع الاحاديث الملفقة على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن خلقوا ما قالوا على الدين وصاحبه ، كيف يجدون حرجاً في اختلاق الاكاذيب على الامويين ؟ وفي يقيني اننا لو حاسبنا الامويين والعلويين حساباً تاريخياً دقيقاً ، لاثبتنا لكل منهم حسنات وسيئات ، وما خرجوا كلهم عن البشرية ، يعشقون الدنيا و يقاتلون منافسيهم عليها ، والتفاوت بين الفريقين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الاثر الذي اثره كل منهم في كيان الامة ، اما العصمة فالشرع والعقل لم يثبتاها لاحد من الناس ، على نحو ما يحاول الطالبون ان يثبتوها لأئمتهم ، ويقولون في غيرهم ما قاله مالك في الخمر .

لا يحكم التاريخ على الناس الا باعمالهم ، واعمال الأمويين التي اعتز بها الاسلام والعرب ماثلة للعيان على الزمان ، فماهي ياترى أعمال من سوّدوا صحيفتهم ظلماً وعدواناً ، وبالغوا فيها بسبيله حتى خرجوا عما يقول العدو في عدوه ، فأخرجوهم عن الملة ، وقضوا بان شيعتهم المغموطة الحق ، المثلوبة التراث ، من عنصر الملائكة الكروبيين اواعلى من ذلك .

وأرى ياصاح ان لا تغتر ايضاً بما نسب لبعض المشاهير مما فيه تنقيص بني أمية . فرسالة الجاحظ التي استشهدت بها وانت شاك في نسبتها اليه ، قد تضمنت افذاعاً يخلفائهم ، لا تثبت بالنقد الصحيح انها من تأليفه ، وهو امام العقل والعلم ، فقد نسبوا للجاحظ عدة رسائل ومنها رسالة الاخلاق التي نشرتها منذ مدة ، وترجح بعد حين انها ليحيى بن عدي . وقد انتحلها ايضاً محيي الدين بن عربي في فتوحاته .

ومما نحلوه لابي عثمان رسالة مناظرة الربيع والخريف المطبوعة في مطبعة الجوائب بفروق وبأقل تأمل تعرف انها من كتابة القرن الحادي عشر اوالثاني عشر للهجرة . وكم من رسالة او كتاب نحلت للمشهورين من سلف الامة ، ولكم نسبت اليهم اقوال ماخطرت لهم ببال . ان رسالة الجاحظ هذه التي وضعها من دسوا كثيراً من الجمل في نهج البلاغة تأييداً لسياستهم قد قصدوا بها شيئين ، ترويج النغمة التي يضربون على أوتارها ليهزوا بها أوتار قلوب الموافقين والمخالفين ، ثم الحط من مرتبة الجاحظ في نظر العقلاء .

وما قلته في بعض المصادر الشعوبية الشيعية أجهر به ، ولا دهان في الحق ولا هوادة ، عند الحكم على بعض الكتب التي اعتمدت ، وكان الاولى الرجوع الى الاصول المنقولة منها مثل « تاريخ التمدن الاسلامي » و « مجاني الادب » و « مشاهير الخطباء » ثم ان روايات « الاغاني » و « حلبة الكميت » و « المستطرف » ليست مما يعتمد عليه في تحليل اخلاق خليفة ، ذلك لان العقل يرد الاقاصيص الموضوعة على يزيد بن عبد الملك واستهتاره بغرام سلامة وحبابة مارواه الاصفهاني ليسلي قراءه بالغرائب كما روي خبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية وما ألى ذلك . والعقل يرد كل الرد ما اتهم به الوليد بن يزيد في خمرياته التي فاقت كما قلت خمريات يزيد بن معاوية .

وقولهم ان يزيد حمل معه كلاباً في الصناديق لما ولي الحج لهشام ، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها عليها ، وحمل معه الخمر وأراد ان ينصب القبة على الكعبة و يشرب فيها الخمر . ولعمري كيف يجرأ الوليد الثاني ، على مافيه من مجون واستهتار بالشعائر ، ان يأتي مثل هذه المنكرات ، ولم يكن هشام بالغرّ المحمّق حتى يوليه الحج ، وهو على هذه الصورة من الاخلاق . اللهم ان هذه التهمة وتهمة يزيد بن معاوية في تعاطي الشراب الى آخر ماتهموه به ومنها عشقه عمته ، مما اختلقه من لاخلاق لهم . ولو كان يزيد بن معاوية على ماذكرنا ماسكت رجال الدين عنه ، وفيهم بقايا الصحابة والتابعين ، وقد شهدنا الوليد قتل في أقل من هذا ثم تقوّلوا عليه كثيراً وتزيدوا .

وقولك (ج ١ ص ٧٠) ان دولة بني أمية كانت مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصي والقبائح فيه مبالغة وغلو ، وليت شعري اذا كانت دولة بني أمية مكروهة مذمومة اما كان ذلك عند اعدائها فقط ممن عادوا العباسيين ولعنوهم ايضاً « راجع رسالة ابي بكر الخوارزمي الى شيعته » ، ثم اي دولة رضي الناس كلهم عنها ، وقد شهدنا ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلوا لاختلاف السياسة ، فكيف بعد هذا نستغرب من اشمئزاز بعض الناقمين على الامويين ، حتى رموهم بما هم منه براء ، وهل تنكر محل الدعاية من تأسيس الدول وقيام الممالك ، فاشتهار الأمويين بالمعاصي والقبائح والحكم على دولتهم كلها حكماً عاماً لا يسلم به العقل السليم ، ولا النقل الصحيح .

ومن الروايات المدخولة قصة عريب جارية المأمون وعشقها جعفر بن حامد (ص ٤١١) فانها لا يصح وقوع مثلها من سفلة الناس وناهيك بصيانة المأمون واخلاقه الطاهرة وكرامة بيته ، ولأدنى نظر ندرك انها موضوعة كل الوضع ، وكان الاولى تحليلها او نبذها بدون تحليل .

هذا وان الكلام على الاسفار غير المعتمدة لا يصدق على كتب أخرى من تأليف المعاصرين ، كالبستاني في مقدمة الالياذة وميور في كتاب الخلافة ، والموازرين في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المملة الاسلامية ، وكتابات نللينو و براون وامثالها ، ممن كتبوا للعلم على الاغلب وهضموا مادونوا . واذا غلطوا في بعض أحكامهم فلا يكون غلطهم عن قصد ، و يبرؤهم من الملامة اذا عرفنا ان ما كتبوه لم يكن العامل فيه التجارة على اختلاف ألوانها . وقد تطمئن النفس لما كتب هؤلاء في العرب والمسلمين ، اكثر من اطمئنانها الى غيرهم من المعاصرين والغابرين ، ممن مزجوا العلم بالاهواء فارتفعت الثقة من مروياتهم ، وحار البصير في أحكامهم فلا يعيرها الا نظر التقزز ، وتسرب الشك الى مصنفاتهم فلم تعد الايدي تتناولها الا بحذر ، لان اهلها أثبتوا في كل عصر انهم من اكثر الاهواء ضراوة على الاسلام والعرب على مافصل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه منهاج السنة .

وليتك أوجزت في اخبار بني أمية ، وفي ايراد بعض القصائد المطولة ، وفي نماذج الشخصيات البارزة في عصر المأمون وتوسعت في مقومات الحضارة في القرن الثاني والثالث من مثل الكلام على مجالس العلم والنقل وبيت الحكمة واثر سهل بن هرون فيها ، فان هذا العظيم لم توفه حقه من الوصف ، وهو والجاحظ فرسا رهان ، وكذلك عمرو ابن مسعدة واثره في البلاغة والسياسة ، لا يقل عن احمد بن يوسف الكاتب .

اما وصف ميور للمأمون بانه لا يستطيع مع اعترافه بعدله ان ينزهه من الجنوح في بعض الاحايين الى الجور واستعمال القسوة من غير مبرر ، وانه تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبابرة والعتاة من أسلافه ، فقول فيه نظر . لانا رأينا المأمون عفا حتى عن كثير ممن نزعوا الى نزع خلافته وسلطانه ، وما عرفت عنه القسوة ولا الجور . واذا رويت روايات مدخولة في بعض كتب المحاضرات قد تكون قرينة لتأييد هذه النظرية ولو من بعض الوجوه ، فلا يكون منشؤها الا اولئك الذين حلفوا ان لا يمسكوا الأقلام الا اذا نالوا من سلطان الراشدين وبني أمية ، وبني هاشم معاً لانهم استأثروا بالملك دونهم ، وذهبوا بالفضل في نشر كلمة الاسلام وبث العروبة في الشرق والغرب ، فكان جزاؤهم عند من خالفوهم ان يطعنوا في كل كبير ، ليقولوا خصومهم اما من تطهرت نفوسهم من كل عيب فهم جماعتنا ليس الا .

ولعل فيما عزي الى المأمون من الاعمال ، وعده بعضهم قسوة وجوراً ، هو عند كثير غيرهم حلم وعدل . وما كان لرجل في مثل ملك المأمون الضخم ان يدير شؤون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمته زمناً ولا يهفو هفوةً ، وفي الحق ان من العنت ان يقال لمن يعدل مئة الف مرة ، ويحلم مئة الف مرة ، ثم يغلط مرة واحدة ، انك ياهذا قاسٍ جائر . وليست القسوة والجور في فطرته ولا فيما ثبت من هديه . ونحن في الواقع لم نستثبت الدواعي التي ادت الى امور لم تتفق مع عقليتنا ، ولاعرفنا منزع المنتقد عليه ومرماه فيما انكرناه . فقد قال غستاف لوبون : اذا كان من الصعب على الفرد ان يكتشف الاسباب الحقيقية التي قدرت عليه افعاله الخاصة ، الا يكون من الصعب ايضاً على مؤرخ ان يدرك الاسباب السرية المستورة بضباب الدهر من الوقائع التي يجهل أصحابها انفسهم مباديها .

هذا رأيي الخاص في سفرك النفيس الذي صنعته وجودته ، فخدمت الآداب العربية بما انتجت خدمة نافعة ، بقي عليَّ ان أهمس في أذنك قائلاً ان هذه الهفوات المعدودة في كتابك لاتقدح فيه بل ترفع من شأنه ، وكل عامل يكبر جهادك وعملك ، ولذلك ادعو لك بحسن التوفيق الى اخراج أمثال «عصر المأمون» للناس ، فتنشر بينهم مادة جيدة منتقاة ، تنير العقل ، وتهذب الروح ، وتسلي الفؤاد ، وتذكرنا ماضياً زاهراً نحن متصلون به على كل حال ، ولا نفتأ وأحفاد أحفادنا على اكمال سلسلته .

والرجاء معقود في هذا الباب على الاستكثار من وضع الكتب المنقحة المحررة على أسلوب العصر ، المشبعة بروح التحقيق ، الحالية بالرشاقة وجمال الفن ، لتخطو الامة العربية خطوة واسعة في سبيل المجد والمدنية ، هذا ومني عليك وعلى ارض طيبة أنبتتك الف تحية وسلام .

م . ك